ضرورة التجديد و مبرراته

عناصر المحاضرة:

-في الحاجة إلى التجديد

-دوافع التجديد النفسية

-دوافع التجديد التاريخية

-دوافع التجديد الاجتماعية

- حركات التجديد في العصر الحديث

في الحاجة إلى التجديد:

ظل الشعر العربي – رغم بعض مظاهر الحداثة التي مورست على مر العصور– أسير الشكل الشعري الأول الذي نطق به الأجداد منذ آلاف السنين إلى غاية العصر الحديث الذي شهد فيه العالم العربي تغيرات سياسية و اجتماعية و حضارية انعكست على النصوص ، فقد ضاق الأدباء ذرعا بالتكرار و البعث و الإحياء وسائر حركات تكريس القديم، فشرعوا في الانفلات تدريجيا من الحبال الفنية التي

كبلت رقبة النصوص ، و زادهم التعرف إلى الآخر رغبة في التحرر والانتقال إلى مناطق فكرية جديدة غيرت من مفاهيمهم للإبداع و تصورهم لتاريخهم الأدبي ، فانعكس هذا الوعي الجديد على تجاربهم مع الكتابة ، فلم يكتفوا بإنتاج نصوص مختلفة ، بل تركوا أيضا كتابات نظرية ترسم التصور الجديد للأدب و تبرر طابع الاختلاف و ضرورة التجديد.

دوافع التجديد: يمكن تلخيص أهم دوافع التجديد في الآتي:

-العامل السياسي المتمثل في الرغبة في الحرية الوطنية و السياسية في مختلف الأوطان العربية .

-العامل الفطري المتمثل في رغبة الإنسان -بشكل عام و المبدع بشكل خاص- في التغيير و صناعة البصمة الفردية الخاصة .

-العامل الاجتماعي حيث يؤدي التيار المحافظ- التقليدي في المجتمع غالبا إلى نتائج عكسية ، تتمثل في زيادة الرغبة في التمرد و الانقلاب على المعايير.

-العامل الثقافي- الحضاري المتمثل في الانفتاح على الآخر بكل تلوناته الثقافية مما استدعى ضرورة التجديد الفني ،إذ غالبا ما تكون الأشكال الأدبية نتيجة طبيعية لتفاعلات تاريخية و اجتماعية و اقتصادية .(1)

حركات التجديد في الأدب العربي في العصر الحديث:

يمكن القول إن مدرسة الديوان بقيادة العقاد و عبد الرحمن شكري و المازني مثلت بداية التجديد الفعلي على مستوى الرؤية النظرية و على مستوى الممارسة النصية، حيث قام اتجاهها على " رفض النموذجية من جهة و تحقيق شعر يتآلف مع المكان و الزمان من جهة ثانية" (2)

جاء في مقدمة الجزء الأول من الكتاب النقدي " الديوان" –1921– أن الغاية من ذلك الكتاب هي " الإبانة عن الجديد في الشعر و النقد و الكتابة ...و إقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما " (3) ، كما وصفت جماعة الديوان مذهبها على أنه " إنساني ، مصري ، عربي" و هو إنساني لأنه ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة و " مظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة " و مصري لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية و عربي لأن لغته العربية . و يمكن اختصار مبادئ الدعوة إلى التجديد عند هذه الجماعة في التالي :

–ألحت جماعة الديوان على الوحدة العضوية في القصيدة ، و على تجنب شعر المديح و المناسبات ،و على ضرورة التنويع في القوافي و استعمال لغة تعكس روح العصر.

–أن تكون القصيدة معبرة عن وجدان الشاعر ومجسدة لصدقه ومعاناته .

– أن تتسم بالوحدة العضوية وتنوع القوافي .

–أن تعتني بتصوير جواهر الأشياء، وسبر أغوار الطبيعة وتأمل فيما وراءها .(4)

تأسست بعد ذلك ، و في سنة 1932جماعة أبوللو (أحمد زكي أبو شادي –علي محمود طه– إبراهيم ناجي ...) و قد قامت على مجموعة من المبادئ الفنية التي كان الهدف منها النهوض بالشعر العربي و الالتصاق بالحياة الإنسانية فركزت على الطابع الوجداني للقصيدة ، و الانحياز للطبيعة بما هي مجهول و أسرار لا تنضب ، و أما من الناحية الفنية فقد أباحت ازدواجية القافية و التنويع في القافية و البحر داخل القصيدة الواحدة كما أكدت على وحدة القصيدة ، و ظهر عند شعرائها الشعر القصصي و المسرحي ، بل و حتى الشعر المنثور " فالشعر المنثور نوع من الشعر تعترف به جميع الأمم الراقية ، لكن على من يتصدى لكتابته أن يكون عظيم الشاعرية قويا ليعوضنا بذلك عن الموسيقى " (5).و يقول

أبو شادي في هذا السياق أيضا : " الشعر ليس هو الكلام الموزون المقفى حسب التعريف القديم و إنما الشعر هو البيان لعاطفة نفاذة إلى ما خلف مظاهر الحياة لاستكناه أسرارها و للتعبير عنها فإذا جاء هذا البيان منظوما فهو شعر منظوم ، و إذا جاء منثورا فهو شعر منثور" (6) لقد مهدت جماعة أبولو بهذا لظهور القصيدة النثرية و الشعر الحر المتحرر إيقاعيا و دلاليا كما سنرى لاحقا .و يمكن تلخيص أهم مقولاتها في الآتي:

-السمو بالشعر العربي وتجديد
-مناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر.
-تحسين الوضع الاجتماعي والأدبي والمادي للشعراء والدفاع عن كرامته
-تعميق الاتجاه الوجداني والانفتاح على الغرب، واستلهام التراث بأسئلة جديدة وبطرائق خلاقة.(7)

في الضفة الأخرى ،خطت مدرسة المهجر(الرابطة القلمية بنيويورك أو المهجر الشمالي و العصبة الأندلسية المهجر الجنوبي) خطوات عملاقة في تجديد الأدب العربي ليس على صعيد الأشكال الأدبية فقط بل على صعيد المدلول الأدبي فقدمت مفاهيم جديدة للشعر و للحياة و الإنسان أيضا ، و كان منطلقها الثورة على التقليد و التأسيس لفعل التغيير و سبيل ذلك هو الخلاص من الأفكار و القيم و التقاليد القديمة. و يمكن أن نستحضر في هذا السياق أبيات جبران خليل جبران في رده على منتقديه من دعاة المحافظة :

جاورتم الأمس ، و ملنا إلى يوم موشى صبحه بالخفاء
و رمتم الذكرى و أطيافها و نحن نسعى خلف طيف الرجاء
و جبتم الأرض و أطرافها و نحن نطوي بالفضاء الفضاء (8)

و في ذات السياق يقول إيليا أبو ماضي :

لست مني إن حسبت الشعر ألفاظا و وزنا خالفت دربُك دربي و انقضى ما كان منا (9)

لقد تميزت مدرسة المهجر بنزعتها الإنسانية المتجاوزة للنظرة الطائفية الضيقة و التعصب الساذج للعرق أو الدين ، يقول جبران خليل : " أحبّك يا أخي ساجدا في جامعك و راكعا في هيكلك و مصلّيا في كنيستك ، فأنت و أنا أبناء دين واحد هو الرّوح" (10). كما تميزت مدرسة المهجر بنزوعها النبوي أيضا و لعل عبارة جبران خليل جبران الشهيرة " جئت لأقول كلمة و سأقولها" تعكس ذلك النزوع ، حيث الطموح العميق هو تأسيس مفهوم جديد للإنسان و الوجود ، و قد أشار جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل سنة 1929 إلى أن الطموح الجوهري للشرقي " العظيم" هو أن يكون نبيا بينما طموح الروسي أن يكون قديسا و الألماني أن يكون فاتحا و الفرنسي أن يكون فنانا كبيراو الانجليزي أن يكون شاعرا كبيرا. (11)

إلى جانب هذا تميزت مدرسة المهجر بنزوعها الفلسفي أيضا إذ التصق كتابها بالطبيعة التصاقا عميقا في محاولة لفهم أسرار الكون ، و هي محاولة عمادها حسن الإصغاء إلى الوجود ذلك المنسي الكبير بتعبير هايدغر ، و حسن استعمال " العين الثالثة" لرؤيته كما ينبغي " تلك الرؤيا ، تلك البصيرة ، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق و أعلى من الأعالي" (12). ويمكن أن نقرأ في كتاب " المجنون" لجبران فلسفة حياة بكاملها ، ففي بداية الكتاب يتساءل جبران : كيف صرت مجنونا؟" و يجيب أن ذلك حصل له حين " سرقت منه براقعه" و التصق بالشمس " فالتهبت نفسه بمحبة الشمس و لم يعد بحاجة إلى براقعه" (13) و سنجد أن الجنون يشكل درب الحرية و الخلاص ، و هو توق إلى ما لا يعرف كما أنه وسيلة للسخرية و هدم الأفكار الجاهزة و المعتقدات الراسخة و عبره يؤسس جبران بشكل فلسفي لعلاقات جديدة بين الأرض و السماء.

لم تسلم حركات التجديد هذه من الانتقادات –تماما مثل التجديد في كل العصور – و لعل أبرز نموذج نقدي تصدى لفعل التجديد و نقف عنده في هذا السياق هو مصطفى صادق الرافعي الذي ذهب

إلى أن التحديث و التجديد ينبعث من ثلاث علل هي الفسق – الإلحاد – و تقليد الفسق و الإلحاد ، فالتجديد هو " أن تكون لصا من لصوص الكتب الأوروبية ثم لا تكون ذا دين أو لا يكون فيك من الدين إلا اسمك " (14) و يخلص الرافعي بعد ذلك إلى القول بأن التجديد هو مجرد ثرثرة و أنه ليس أكثر من رواية تمثيلية كاذبة تزيف الأصل.(15)

هوامش المحاضرة: